تشكيلات الحزن في شعر المعتمد بن عبّاد الإشبيلي وأبي فراس الحمداني، مرحلة الأسر أنموذجاً

شفيق علي القوسي

قسم اللغة العربية –كلية التربية – جامعة البيضاء– اليمن.

DOI: https://doi.org/10.56807/buj.v2i2.80

الملخص

تنبثق أهمية البحث من خلال تسليط الضوء على شاعرين مهمين ,وعلمين بارزين ,من أعلام الأدب العربي, هما أبوفراس الحمداني, والمعتمد بن عبّاد الإشبيلي ,وتناول قضية الحزن في شعريهما إبان مرحلة الأسر ,في ضوء مقارنة للنصوص الشعرية التي صورت تلك المرحلة ,وإظهار تشكيلات الحزن التي صبغت عواطفهما وهما يقبعان في ظلام السجن.

Abstract

The importance of the study lies in sheding light on two important and well-known poets who are considered to be among the pillars of the Arabic literature. They are Al-Moatamid Bin Abbad Al-Eshbili and Abi Firas Al-Hamadani. It tackles the issue of sadness in their poetry while being captured and imprisoned in the light of comparing their poetic texts that visualized that period. It also aims at revealing the sadness features that affects their emotions in the darkness of the jail

التمهيـد:

من يقرأ الأدب العربي القديم،يجد في قصائد الكثيرمن الشعراء التشابه الكثيرسواء في صورهم الشعرية أم في موضوعاتهم المتنوّعة ، بَيْد أنّ هناك بعض الشعراء تساوت تجربتهم الشعرية من خلال محنةٍ ما تجمع بينهم، ومن أولئك الشعراء ، الشاعران الكبيران ، والعلمان الشامخان، الملك الشاعر/المعتمد بن عبّاد الإشبيلي المتوفّى 488هـ، والأمير الشاعر/أبوفراس الحمداني المتوفّى 357هـ, حيث نلمح في قصائدهما إبّان مرحلة الأسرتشابهاً كبيراً,فكلاهما كان لهما المجد في موطنه؛ المعتمد ملكاً,وأبوفراس أميراً , وكلاهما وقع في الأسْر,وقد خلّفا العديد من القصائد البديعة، والمقطوعات المؤثرة في وصف الأسر ومِحنه المظلمة ,فكل واحد منهما أثخن بالجراح قبل أسره,وتكبد مرارة المرض في محبسه, وقد كانت مدة الأسرلكل منهما متساوية,غيرأن أبافراس تمّ إطلاق سراحه, أمّا المُعتمد فقد مات أسيراً في منفاه البائس.

وقد كان لقصائدهما في تلك المرحلة تأثيربالغ في تشكيل الحزن, ورسم آلامه,واستقراء تنوّع انكساراته, وتتابع زفراته المحرقة,هذا ماجعلنا نقارن بين تلك الأشعار, ونرصد تشكيلات الحزن فيها.

ونفتتح المقارنة بينهما من قول المعتمد بن عبّاد عندما هاجم المرابطون عاصمة ملكه,وحاصروه في قصره سنة484هـ, وقد كان أشار عليه وزراؤه بالخضوع والاستعطاف, فخرج مدافعاً عن نفسه وأهله وأخذ يقول(بدوي ,1951م، ص 89.88) :

لمّا تماسكت الدموعُ ... وتنبّه القلب الصديعُ

وتناكرت هممي لما ... يستامها الخطبُ الفظيعُ

قالوا الخضوعُ سياسةٌ ... فليبد منك لهم خضوعُ

وألذُّ من طعم الخضوع ... على فمي السمُّ النقيعُ

إن يسلب القوم العدا ... ملكي وتسلمني الجموعُ

فالقلب بين ضلوعه ... لم تُسلم القلبَ الضلوع

لم أستلب شرف الطباع ... أيُسلب الشرف الرفيعُ

ماسرت قط إلى القتال ... وكان من أملي الرجوعُ

شيم الألى أنا منهمُ ... والأصل تتبعه الفروعُ

هذا النص يتفق مع قول أبي فراس عندما وقع أسيراً في أيدي الروم بعد أن طالبه أصحابه بالفرار: (،ابن خالويه، 1959م, ص 107.)

وقال أصيحابي الفرار أو الردى

فقلت هما أمران أحلاهما مرُّ

ولكنني أمضي لما لا يُعيننـي

وحسبك من أمرين خيرهما الأسرُ

نلاحظ تشابه المعاني بين النصين،فكلاهما تنضح منه النفس الأبية العزيزة الرافضة للتولّي والفرار,بل حتى الاستسلام,وقد فضّل كل واحد منهما الموت على ذلّ الخضوع,وقهر اليأس,على الرغم من أن المعتمد أُسرَ هو وأسرته ،وخلع من ملكه وسلطانه ،أما أبوفراس فقد تمّ أسره في سرية فرسان في إحدى ضواحي منبج,ومع ذلك تظلّ نفس العربي أبيّة جامحة, لمحنا ذلك في النصين السابقين لكلا الشاعرين.

وقد جاء نص المعتمد على تفعيلات مجزوء الكامل المرفّل "متفاعلن متفاعلاتن",حيث بدا الإيقاع أكثر رونقاً,وأرقّ وقعاً من مقطع أبي فراس الذي جاء على وفق تفعيلات البحر الطويل ذي النفس الطويل، والمقاطع الكثيرة،كما أن المعتمد استخدم تقنيّة الازدواج الصوتي عبر تناوب حرفي القافية "الياء والواو"،ماأعطى النص بُعداً نفسياً ,وتناغماً إيقاعياً ,يمفصل النص بحركة دؤوبة تخلق القدر الكافي من الشعرية.

وفي نص آخر يقول المعتمد: (ديوان المعتمد, ص 110.111)

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن بي

سـوارح لاسـجن يعـوق ولاكبلُ

ولم تك والله المعيـذ حسـادة

ولكن حنيناً إن شكلي لها شكلُ

فأسرح لاشملي صديع ولا الحشا

وجيع ولا عيناي يبكيهما ثكلُ

هنيئاً لها إن لم يفرق جميعها

ولا ذاق منها البعد عن أهلها أهلُ

وإن لم تبتْ مثلي تطير قلوبهـا

إذا اهتزّباب السجن أوصلصل القفلُ

لنفسي إلى لقيا الحِمام تشوّفٌ

سواي يحب العيش في ساقه كبلُ

ألاعصم الله القطا في فراخها

فإن فراخي خانها الماء والظلُّ

نلاحظ هذا النص يتماثل صياغةً وإيقاعاً مع نص أبي فراس وهو يخاطب حمامة في سجنه،ويبثها همومه قائلاً (. ديوان أبي فراس , ص 130):

أقول وقد ناحت بقربي حمامة

أيا جارتا هل بات جالك حالي

معاذ الهوى ماذقت طارقة النوى

وما خطرت منك الهموم ببالي

أتحمل محزون الفؤاد قوادم

على غصن نائي المسافة عال

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا

تعالي أقاسمك الهموم تعالي

أيضحك مأسور وتبكي طليقة

ويسكت محزون ويندب سالِ

لقد كنت أولى منك بالدمع مقلـة

ولكن دمعي في الحوادث غالِ

ونجد التشابه بين النصين السابقين يكاد يكون جليًّا إلى حد كبير ،فالمعتمد يتمنّى أن يكون كسرب القطا ، كي ينطلق محلقاً بلا أغلال ولاقيود،وأبو فراس يخاطب حمامة على غصن ،ويريد أن يقاسمها همومه،لأنه كما يقول أولى بالدمع منها غير أن دمعه غالٍ إذا دهمته الحوادث.بيْد أن الحزن الراعف يتشظى بقوة في نص المعتمد؛فقلبه يطير إذا سمع باب محبسه أو حتى قفل الباب يتحرك!! حتى أنه تمنى الموت ؛لأنه لا يطيق العيش حبيساً، كما أن حزنه على ملكه وأهله كبير ،بدليل قوله: (فإن فراخي خانها الماء والظل) كناية عن أبنائه وأسرته التي باتت تعاني الأمرّين في ظلمات سجن أغمات .وهذا يذكرنا بنص الحطيئة وهو يعتذر لسيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه بقوله(أوس ـ .1958م, ص 98).:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ

زغب الحواصل لاماءٌ ولاشجرُ

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة

فاغفر عليك سلام الله يا عمرُ

ولم يكتفِ المعتمد بذلك بل أخذ يصف قمرية أمامها طائران يغردان في دعة وعذوبة(ديوان المعتمد , ص 69.68.):

بكت إن رأت إلفين ضمهما وكرُ

مساءً وقد أخنى على إلفها الدهرُ

بكت لم ترق دمعاً وأسبلت عبرة

يقصرعنها القطر مهما همى القطرُ

وناحت فباحت واستراحت بسرها

وما نطقت حرفاً يبوح به سرُ

فمالي لا أبكي أم القلب صخرة

وكم صخرة في الأرض يجري بها نهرُ

بكت واحداً لم يُشْجِها غيرُ فَقْدِهِ

وأبكي لآلاف عديدهم كثرُ

بُنَيٍّ صغير أو خليل موافق

يمزق ذا فقرٌ ويغرق ذا بحرُ

ونجمان زين للزمان احتواهما

بقرطبة النكداء أو رندة القبرُ

فقل للنجوم الزهر تبكيهما معي

لمثلهما فلتحزنِ الأنجمُ الزهرُ

إن الحزن يكاد يقفزمن هذه الأبيات ،كما أن الأسى يقطر حسرة، ونحن نقرأها .حيث وُفّق المعتمد في اختيار تفعيلات البحر الطويل التي تساعد على تصوير الحزن واستيفاء عناصره ،ليتشكّل البكاء المر والجزع الشديد من هول

الفاجعة وفداحة المصير .يتجلى ذلك من خلال:(وأسبلت عبرة، فما لي لا أبكي، وأبكي لآلاف)،وتصوير هول المصاب لفقد الأبناء ،حتى أنه طلب من النجوم أن تبكي معه لفقد وَلَدَيْه ،وهنا يبرز ما يسمّيه النقاد:(المعادل الموضوعي)،حيث سعى الشاعر إلى إضفاء ما ينتابه على ما يعادله أو يساويه في حزنه وشكواه ،ولا يوجد مثل الطيور معادلاً لحالة شاعرنا ،فهو حزين بائس أسير يتوق للحرية والانعتاق، والتحليق والانطلاق، كحال الطيور في جوِّ السماء.

والنص السابق يتفق مع نص أبي فراس(أراك عصيَّ الدمع)وزناً وقافيةً، بل وحتى مضموناً وسياقاً ،وهذا لا يعدُّ غريباً إذا ما أخذنا في الاعتبار أن المعتمد متأخر زمناً وأحداثاً عن أبي فراس ،ولا غرو إن تأثر المعتمد بأبي فراس في هذه القصيدة، لأنها قصيدة ذائعة الصِّيت، سارت بها الركبان ،وتحدث عنها الزمان، والمعتمد بائس حزين ولابأس إن التمس من تلك القصيدة زاد الأسى وماء التفجُّع.

وقد أثار النصان السابقان فينا انتباهاً عجيباً، لما فيهما من وزن متناغم ،ودفق إيقاعي لافت ،ليكوِّنا معاً سلسلة متصلة الحلقات لا تنبو إحداها عن مقاييس الأخرى ،لأن الكلام الموزون ذا النغم الإيقاعي المتدفق تتشرَّبه القلوب قبل الآذان ،وتخفق له المشاعر ،وتطرب له الخواطر .لذلك كان الإبداع الفني في جانبه الحدسي وجانبه التعبيري متصلاً بالحالات الشعورية والانفعالات والوجدان والعواطف ؛لأنه ما من عمل فني يستجيب له الفكر إلا وله أصوله النفسية ،بمعنى آخر :وجود منبه أو باعث أو مثير يثير الوجدان فيؤدي إلى الانفعال.

وفي تشكيلات الحزن لدى الشاعرين نجد مثيرات متعدّدة ،منهاعلى سبيل المثال :مجيء العيد وهما مكبّلان بالقيود، تعلوهما الحسرة، وتقطّع كبديهما آلام الأسر ،حيث يقول المعتمد عندما دخلن بناته ليهنئنه بالعيد، ورآهن حسيرات بائسات، حافية أقدامهن ،خاشعة أبصارهن ،في موقف يطيش العقل منه حزناً وألماً (ديوان المعتمد , ص 100.):

في ما مضى كنت بالأعياد مسرورا

فساءك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الأطمار جائعة

يغزلن للناس ما يملكن قطميرا

برزن نحوك للتسليم خاشعة

أبصارهن حسيرات مكاسيرا

يطأن في الطين والأقدام حافية

كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

لاخدّ إلا تشكّى الجدب ظاهره
وليس إلا مع الأنفاس ممطورا

أفطرت في العيد لا عادت إساءته
فكان فطرك للأكباد تفطـيرا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً
فردك الدهر منهياً ومأمـورا
من بات بعدك في ملك يسر به
فإنما بات بالأحـلام مغـرورا

أما أبوفراس فيقول في حسرة وحزن ،وقد أدركه العيد وهو في محبسه(ديوان أبي فراس ,ص 145.) :

يا عيد ما عدت بمحبوبِ على معنى القلب مكروبِ
يا عيد ما عدت إلى ناظر من كل حسن فيك محجوبِ
يا وحشة الدار التي ربها أصبح في أثواب مربـوبِ
قد طلع العيد على ربها بوجه لا حسـن ولا طيّبِ
مالي وللدهر وأحداثه لقد رمـاني بالأعاجـيبِ

والشاعران يتفقان في تصوير أحزانهما، وبثّ آلامهما، مع أول عيد يطل عليهما وهما يرسفان في القيود، فلا أهل و لا عزّ ،لا مجد ولا سعادة. إلا أنّ نص المعتمد كان الأكثر حزناً، و الأشد وقعاً ،فإذا كان أبو فراس وحيداً في الأسر ،فإن المعتمد معه أهله!!،و يالهول الصدمة ،وفداحة الفاجعة، عندما يرى بناته في تلك الصورة البائسة الحزينة وهنّ بائسات حسيرات ،جائعات، خاشعات البصر، كأنهن لم يطأن المسك والكافور!! (ديوان المعتمد ، ص 101). ولم يتمتعن بالحظوة والسرور!!!،وكم كان قوله :(فكان فطرك للأكباد تفطيراً) ملائماً في استدعاء كل عناصر الأسى والندم، واستقصاء كل مناحي الوصف الدقيق لتلك الحالة المؤلمة.

كما اتفق الشاعران في شدّ انتباه القارئ عبر تقنية(الازدواج الصوتي) (مطلوب .1983م, ص 97.) من خلال تعاقب حرفي القافية :الواو والياء, في نص المعتمد: مأسورا ،قطميرا، مكاسيرا ،كافورا.....،وفي نص أبي فراس :مكروب ،محجوب ,مربوب ،طيب، بالأعاجيب....،هذا أعطى النصين السابقين بُعداً إيقاعياً متناغماً ،وحقّق لهما قدراً كبيراً من الجمال الفني، على الرغم من أن قافية المعتمد رويُّها راء متبوع بألف الاطلاق ،و قافية أبي نواس رويُّها باء مكسور، وكلاهما توحيان بالحزن والألم, وحب التحرر والفكاك من الأسر.

وقد كان أبو فراس موفقاً في اختيار حرف الباء رويّاً لنصه السابق ؛فالباء حرف شفوي انفجاري يأتي في حالة إغلاق الشفتين ثم فتحهما فجأة ،ومن المعروف أن الباء من حروف القلقلة عند علماء التجويد والقراءات ،والأصوات المتقدمة في الفم توحي بالاستصغار والازدراء ،أما الجر :فيفيد الإلحاق (لوشن, 1995,ص127.)
،ولعل هذا ما قصده أبو فراس من ازدراء الأسر ،والقلق من تأخّر ردّ ابن عمّه سيف الدولة.

كذلك نلمح توفيق المعتمد الذي اختار الراء المفتوح المتبوع بألف الإطلاق رويّاً لنصه ،وما لهذا الحرف من صفات كالتكرير والاضطراب ،وهو ما يترجم تلك الحالة القاتمة المرعبة التي يعايشها المعتمد، من خوف دائم ،و قلق مستفز، وخاطر مضطرب ،وما حضور ألف الإطلاق إلا دليل واضح على رغبة الشاعر في التحرر والانعتاق ،والانطلاق بعيداً من القهر والوصب.

ولمّا كان الشعر صناعة، فقد أجاد الشاعران في إقامة الوزن، وتخيُّر الألفاظ، وانتقاء المخارج المعبرة عن الحالة الشعورية ،بما يؤكد على أن الإبداع الفني يتصل في جانبه التعبيري بالحالات النفسية للشعراء والمبدعين ،عبر المؤثرات المتعدّدة ،التي تذكي العواطف ،وتؤجّج المشاعر، وهذا ما لمحناه في النصين السابقين من تصوير المأساة في أول عيد يطلُّ على الشاعرين وهما في غياهب السجن.

كما أن التحول الإيقاعي في النصين السابقين سار وفق منظومة من الحركات الإيقاعية المتناغمة ،وهو ماخلق الحيوية والدينامية في البنى السياقية بمايتفق مع الحركة الداخلية

للنص،في تتابع نسقي بديع يسمح بتوليد دفقات شعرية تفيض عذوبةً وجمالاً.وذلك نلاحظه من خلال تناوب التفعيلات في النصين السابقين،فتفعيلات البحر البسيط:تتحول من مستفعلن إلى متفعلن في نص المعتمد،وفي نص أبي فراس:تتحول تفعيلات البحر السريع: مستفعلن أيضاً إلى متفعلن ومستعلن.بما يجسد الحضور الإيقاعي لدى الشاعرين في تصويرالانفعالات،وتفسيرعذابات الضميرالملتهبة.

ومن تشكيلات الحزن عند الشاعرين : رثاء الأقارب،حيث ورد على أبي فراس وهو في الأسرنبأ وفاة أبي المكارم ابن سيف الدولة سنة 354هـ، فاشتدّ جزعه على ابن أخته،وأرسل قصيدة يعزي فيها سيف الدولة،وقد استهلّها بالدعاء لسيف الدولة بطول العمرونعته بالصبر والجلد فقال .(ديوان أبي فراس ،ص 276.275):

ياعمّرالله سيف الدين مغتبطاً
فكل حادثة يُرمى بها جللُ
من كان عن كل مفقود لنا بدلاً
فليس منه على حالاتـه بدلُ
يبكي الرجال وسيف الدين مبتسمٌ
حتى عن ابنك تعطى الصبر ياجبلُ
لم يجهل القوم منه فضل ماعرفوا
لكن عرفت من التسليم ماجهلوا

ويُظهر أبوفراس على الأمير الفقيد شتى ضروب اللوعة والحزن والتفجّع، ولاغرو في ذلك،فالفقيد يمتُّ بصلة قريبة إليه، كما أن أسر الشاعر وبُعده عن الأهل والوطن أضفى على نفسه كآبة ووحشة، وفي ذلك يقول(ديوان أبي فراس ،ص 276.275)

هل تبلغ القمر المدفون رائعة
من المقال عليها للأسى حللُ
ما بعد فقدك في أهل ولا ولد
ولا حياة ولادنيا لنا أمـلُ
يا من أتته المنايا غير حافلة
أين العبيد وأين الخيل والخولُ؟
أين الليوث التي حوليك رابضة
أين الصنائع أين الأهل مافعلوا؟
أين السيوف التي يحميك أقطعها
أين السوابق أين البِيض والأسلُ؟

وقد جاء إلى أبي فراس وهو أسير نبأ موت أمه؛ فرثاها بقصيدة تفيض لوعة وحزن، تعبر عن ألمه العميم، وحزنه العميق، ويبدو تأثره واضحاً في ترديد الدعاء بالسُقيا لجدثها حيث يقول (ديوان أبي فراس ،ص 276.415)

أيا أمَّ الأسير سقاكِ غيثٌ
بكرة منكِ ما لقي الأسيرُ
أيا أمَّ الأسير سقاكِ غيثٌ
تحيّر لايقيم ولا يسيرُ
أيا أمَّ الأسير سقاكِ غيثٌ
إلى من بالفدا يأتي البشيرُ
أيا أمَّ الأسير لمن تُربى
إذا مت الذوائب والشعورُ

ويحرّم على نفسه أن يكون هادئ البال، مرتاح النفس، بعد أن لبّت أمّه نداء ربها ، حيث يقول(ديوان أبي فراس ،ص 477.)

حرامٌ أن يبيتَ قريرَ عينٍ
ولؤم أن يُلمّ بـهِ سرورُ
وقد ذقتِ المنايا والرزايا
ولا ولدٌ لديكِ ولاعشيرُ
وغاب حبيبُ قلبِك عن مكانٍ
ملائكةُ السماءِ بهِ حضورُ

ويمزج بين البكاء على أمّه، وبين الحديث عن مناقبها كالسماح، والتقوى، والأخلاق الكريمة، فيقول(ديوان أبي فراس ،ص 477.) ::

ليبْكِكِ كلُّ يومٍ صُمْتِ فيه
مصابرةً وقد حمي الهجيرُ
ليبْكِكِ كلُّ يومٍ قُمْتِ فيه
إلى أن يبتدي الفجر المنيرُ
ليبْكِكِ كلُّ مُضطَهدٍ مَخوفٍ
أَجَرْتيه وقد قلَّ المُجيرُ
ليبْكِكِ كلُّ مسكينٍ فقيرٍ
أغثْتيه وما في العظم زيرُ

ويرسل الشاعر ذوب نفسه، ونفثات حشاه الجريح، وصبابات قلبه الراعف بالحزن والأسى، حتى نكاد نسمع نشيج بكائه عندما يقول(ديوان المعتمد ، ص 105.) (ديوان المعتمد ، ص 116.) (ديوان المعتمد ، ص 117.)

أيا أمّاه كم همّ طويل
مضى بكِ لم يكن منه نصيرُ
أيا أمّاه كم سرّ مصون
بقلبكِ مات ليس له ظهورُ
أيا أمّاه كم بشرى بقربي
أتتْكِ ودونها الأجل القصيرُ
إلى من أشتكي ولمن أناجي
إذا ضاقت بما فيها الصدورُ

أمّا المعتمد، فقد تشكّل الحزن لديه وهو في أسره، في ضوء الآلام التي سيطرت على خواطره، واستحوذت على أفكاره، لذلك نجده يرثي ولديه:المأمون الذي قُتل في قرطبة سنة 484هـ، والراضي الذي قُتل في رُندة بعده بأيّام، حيث يقول (ديوان المعتمد ، ص 117.):

يقولون صبراً لاسبيل إلى الصبرِ
سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري
هوى الكوكبان الفتح ثم شقيقه
يزيدٌ فهل عند الكواكبِ من خُبرِ
ترى زهرها في مأتم كل ليلة
تخمش لهفاً وسْطَه صفحةَ البدرِ
ينحن على نجمين أثكلت ذا وذا
وأصبر ما للقلب في الصبر من عذرِ
أبا خالد أورثتني الهمَّ خالدا
أبا النصر مُذْ ودعت ودعني نصري
وقبلكما قد أودع القلب حسرة
تُجَدِّدُ طولَ الدهرثكلَ أبي عمرو

وهنا نلاحظ الحزن الشديد ، والتفجُّع الشديد ، والحسرة المحرقة على وَلَدَيْه , هذا أثار الحسرات الكامنة على فقد ابنه أبي عمرو سراج الدولة الذي كان على قرطبة ، وظل بها إلى أن هاجمه ابن عكاشة سنة468هـ , فدافع عنها ، وخرج لملاقاة عدوه ، وقُتل بعد أن سقط عن جواده.

وقال المعتمد في إثْر ثورة ابنه عبد الجبار (التنوخي ,1995م،182/1،)

كذا يهلك السيف في جفنه
إلى هز كفي طويل الحنينِ
كذا يعطش الرمح لم أعتقله
ولم تروه من نجيع يميني
كذا يمنع الطرف علك الشكيم
مرتقبا غرة في كمينِ
كأن الفوارس فيه ليوث
تراعي فرائسها في عرينِ
ألا شرف يرحم المشرفي
مماب من شمات الوتينِ
ألا كرم ينعش السمهري
ويشفيه من كل داء دفينِ
ألا جِنة لابن مَحنية
شديد الحنين ضعيف الأنينِ
يؤمل من صدرها ضمة
تبوّئه صدر كف معينِ

وعندما تمَّ إخمادها ، انقطع حبل الأمل الذي كان المعتمد متمسّكاً به ، وانطفأ بصيص النور الذي كان يمنّي نفسه بأن يصبح شمساً ساطعة ، فأكل الحزن قلبه ، وسكنت الحسرة كل جسده ، حتى أطلق ليأسه العنان صارخاً بكل قوة (وهبه ، 1984م, ص 190):

تؤمّل للنفس الشجية فُرجةً
وتأبى الخطوب السود إلا تماديا
لياليك من زاهيك أصفى صحبتها
كذا صحبت قبل الملوك الليالي
نعيم وبؤس ذا لذلك ناسخ
وبعدهما نسخ المنايا الأمانيا

من كل سبق نلاحظ أن الشاعرين شكّلا حزنيهما تبعاً للمثير،وتماشياً مع كل البواعث، وقد تشابها في وصف الألم ، وتصوير المأساة،حتى أضحى للحزن تشكيلات متنوعة عند كل واحد منهما ، يتشذّرمنها الشجن ، ويقطرمنها البوح البائس الحزين.

ومما يجدر ذكره في هذه الدراسة ؛ هوأن أبا فراس كان يضع أمله وثقته في دولة قوية كدولة بني حمدان , وفي فارس بطل ومحنك كابن عمه سيف الدولة , لذلك كانت ملامح الانفراج والخروج من السجن تبدو أكثر قرباً , على عكس المعتمد الذي فقد الأمل واستسلم للأسر؛ لأنه كان تاج ملوك الطوائف , وبسقوطه انفرط عقد الأندلس في ذلك الوقت , لذلك نجده ينوّع في تأصيل أحزانه ويقوم بتشكيلها بطرائق متعدّدة ، حتى أصبحت مرحلة الأسرهي الأكثرإنتاجاً , والأجود سبكاً,والأقوى عاطفةً ، من كل مراحل حياته.

إلّا أن تأخُّرإطلاق سراح أبي فراس أثار تساؤلاتٍ عدّة عند أغلب المؤرخين,والإجابة عن الإبطاء في فداء أبي فراس تستدعي النظر في الحال التي كان عليها سيف الدولة بعد أسر أبي فراس؛فلقد سقطت حلب بأيدي الروم,ونهبت أموالها وأسلحتها وأمتعتها،والفداء يتطلب المال الكثير،والروم كان في أيديهم فضل ثلاثة آلاف أسيرمن العرب,ولم يكن سيف الدولة . بافتداء أبي فراس وزمرة قليلة معه . ليبقي بين أيدي الروم هذا العدد الضخم من رجاله,لهذا ظل ينتظرالظروف المواتية التي تسمح بافتداء الجميع.وعندما سنحت الفرصة سنة355هـ،أقام الفداء بشاطئ الفرات،وأنفق عليه خمسمئة ألف دينار،وأخرج كل من قدر على إخراجه من أسارى المسلمين من سجون الروم،ودفع المال الذي لزمه لفداء الأسرى من ماله دون أن يعاونه أحد من الملوك ولا غيرهم,وقد بلغ به الأمرأن يرهن درعه الثمين المعدوم المثل لما نفد ما كان معه من مال(التنوخي ,1995م،182/1،).

وختاماً،يمكننا القول:إن أوجه التشابه بين المعتمد بن عبّاد الإشبيلي،وأبي فراس الحمداني في محنة الأسر،كان لها الأثر البالغ في ظهور العديد من الصور المتشابهة بينهما من خلال الموضوعات الشعرية،وتشابه المعاني والمفردات اللغوية،وتقارب الصورالبيانية والأساليب البلاغية,بل وحتى الإيقاع وموسيقى الشعر .

ومما أعطى تجربة الشاعرين بُعداً صوفياً،أكثرا فيه من الحكمة وشكوى الزمان،وذكر الموت والفناء،دخولهما السجن بعد سن الأربعين،فقد كان دخول المعتمد السجن وهو في آخر عقده السادس،أمّا أبوفراس فكان دخوله للسجن في مستهل العقد الرابع من عمره،مع الأخذ في العلم أن تجربة المعتمد كانت الأكثرقسوة من تجربة أبي فراس؛لأن المعتمد فقد كل شيء في محنته،الملك،والعرش،والسؤدد،والعز،وحياة القصور،وعظمة السلطان،وغدا أسيراً كسيراً قابعاً في سجن أغمات،حيث توالت النكبات على كاهله،ممّا جعل شعره يمتاز بالصدق العاطفي،ولاغرو! فالمعتمد يمتلك ثقافة شعرية واسعة مكّنته من تصوير تلك المرحلة المرَّة القاسية.هذا يجعلني أقول:إن المعتمد بهذا فاق أبي فراس في تشكيل أحزانه،مع أنّ أبا فراس كان يسبقه زمناً ونبوغاً!!، إلا أن المعتمد حلَّق بعيداً في تصوير عواطفه، وأثبت أنه ملك كبير،كماأنه شاعر عظيم،فقد كان من أسرة تقرض الشعر،وكان لا يستوزرإلّا من كان شاعراً،وقد حاولت هنا إظهاربعض صور التشابه بينه وبين الأمير الفارس والشاعرأبي فراس الحمداني،من خلال تجربة الأسر التي كانت من أهمّ المحطات الأدبية عند الشاعرين،ويمكن أن نطلق عليها:{أغماتيات المعتمد،ورومياتٍ أبي فراس} (وهبه ، 1984م, ص 190).

لقد كانت مرحلة الأسرعند كلا الشاعرين،بمثابة المحطة التي توقف عندها الشاعران كثيراً،والجذوة الملتهبة التي اصطلى بضوئها وجدان كل واحد منهما،حتى وإن كانت اللحظات صعبة،والساعات مريرة،فقد شكّلا إنتاجاً شعرياً مصبوغاً بالحزن والأسى،ونبرات التوجّع والتفجّع والكآبة،لتخرج إلينا قصائدهما في تلك المرحلة ذات شجن عميق,وتوجّع راعف،على الرغم من أنها كانت قصيرة في الوقت، فإنها كانت طويلة من حيث غزارة الإنتاج،هذا ما أكّده المؤرخون،وشهدت به مؤلفاتهم (عبد الحميد 1973م, 61/1)

كما أن اختيار القوافي التي تشكل الحزن في شعريهما ، والتي بنيت وفق تماثلات صوتية أساسها أحرف القافية أعطى نصوصهما بعدا حميميا جعل العلاقة بين القوافي كلها علاقة حتمية تربط فيما بينها أواصر التماثل،ما يجعل السامع يتماهى كليا مع تلك القوافي ويتفاعل معها (الغرفي ،1979،ص 32،67).

قائمة المراجع

[1]. أبوحمدة ,محمد صلاح زكي (1977), *البلاغة والأسلوبية عند السكاكي*، ،دار المعارف،القاهرة،.

[2]. ابن الأبّار (1931). الحلة السيراء، ،تحقيق: حسين مؤنس،الشركة العربية للطباعة والنشر،القاهرة،ط/1، ، 2/63.

[3]. . حسن الغرفي (1979) حركية *الإيقاع*، ،دار العودة ،بيروت،،ص 32،67.

[4]. . ديوان أبي فراس الحمداني،شرح :ابن خالويه،1959 دار صادر ،بيروت،.

[5]. . ديوان الحطيئة جرول بن أوس،شرح : ابن السكّيت ،والسجستاني 1958،تحقيق: نعمان أمين طه،القاهرة،ط/1،.

[6]. . ديوان المعتمد بن عبّاد،جمع وتحقيق: أحمد محمد بدوي،وحامد عبد الحميد، (1951) المطبعة الأميرية، القاهرة،ط/1،.

[7]. . ابن العديم (1951)، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان،دمشق،.

[8]. د نور الهدى لوشن 1995 علم الدلالة, ,جامعة قاريونس, بنغازي,ليبيا,ط/1,.

[9]. وهبة ،مجدي ، وكامل المهندس (1984) معجم المصطلحات الأدبية في اللغة والأدب،مكتبة لبنان،بيروت،.

[10]. مطلوب احمد (1983) . معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ،مطبعة المجمع العلمي العراقي،بغداد،.

[11]. الرواشدة سامح (2006) مغاني النص، ,المؤسسة العربية للدراسات والنشر ,بيروت,ط/1 ,.

[12]. ماريوس كنار(1934) . نخب أدبية وتاريخية, ,الجزائر,.

[13]. التنوخي, محسن بن علي (1995)، . نشوار المحاضرة وأخبار المحاضرة, تحقيق: عبود الشالي,دار صادر ,بيروت,.

[14]. الثعالبي (1973), . يتيمة الدهر, تحقيق:محي الدين عبد الحميد .,القاهرة,ط/1,